

أطباء بني زهر

أبو مروان عبد الملك بن زهر

د. عماد ابراهيم الخطيب

إن مسؤولية التعريف بالتراث العربي الاسلامي لمسؤولية جسيمة تتطلب منا — علماء ومفكرين — التصدي لكل الادعاءات الكاذبة، التي من شأنها قلب الحقائق، والعمل على تعريف جيلنا بماضي امتنا المشرق في كل المجالات، ليكون حافزاً على النهوض في مجالات البحث العلمي، الذي هو أساس كل نهضة علمية وحضارية على السواء.

ولابأس أن نتحدث بشكل موجز سريع عن أسرة بني زهر قبل الخوض في الحديث عن أحد أطبائها المشهورين المرموقين، وهو أبو مروان ابن زهر الإيادي الإشبيلي.

أسرة بني زهر :

تعتبر أسرة بني زهر من الأسر الاسلامية المحافظة، ومن الأسر الكبيرة والعريقة التي عاشت في الاندلس من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر الميلادي، واشتهرت هذه الاسرة بصناعة الطب، وكانت سمعتها لامعة في سماء الطب والعلم. هذه الاسرة قدمت من الشرق واستقرت في الاندلس في مدينة اشبيلية، وقد وجدت تكريماً واهتماماً عظيمين، وكذلك الدعم والنصرة من قبل أمراء الاندلس على

مختلف توجهاتهم السياسية في القرون الوسطى، وذلك لبراعة أفراد هذه الاسرة في مهنة الطب.

أنجبت هذه الاسرة عدداً كبيراً من الأطباء الماهرين والطبيبات الفاضلات ما بين القرن الخامس والسابع الهجري، وكان من أفرادها من تولى الوزارة ومنهم من نهل من كل العلوم التطبيقية والانسانية، ومنهم من تفرغ للطب وحده.

لقد أبدع أفراد هذه الاسرة في تشخيص الامراض وطرق العلاج، وكتبوا العديد من المؤلفات والمصنفات العلمية والطبية والتي احتوت على العديد من النظريات القيمة والاساليب العلمية المتطورة، وكانت زاداً فياضاً نهل منه العلماء والاطباء وطلاب الطب في العالمين الشرقي والغربي، وقد انهر المؤرخون بالمشاهدات العلمية المبتكرة التي دونها أطباء بني زهر في مصنفاتهم الطبية وكانت بحق مشاهدات أصيلة وفريدة لم يسبقهم إليها أحد في كثير من الاحيان، وحرص أفراد هذه الاسرة على البحث العلمي المستمر عن الحقيقة العلمية والوصول إلى الثابت من المناهج الطبية، ودفعهم هذا إلى الغور في بطون الكتب والمؤلفات التي وصلت إليهم من سابقيهم أملاً في الاستزادة من العلم، والكشف عن المفيد لتطوير مهنة الطب، وهي بذلك أصبحت قدوة طيبة لكل الأسر والعائلات العربية والاسلامية لتحذو حذوها.

ولابأس في هذا المقام أن نذكر طائفة من أسناء هذه الاسرة الكريمة من الذين نبغوا في عالم الطب، رجالاً ونساء، وقد كني أبنائهما ببني زهر.

١ - الشيخ محمد بن مروان بن زهر.

٢ - أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر «الجد».

٣ - أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن زهر «الأب».

٤ - أبو الوليد «أبو مروان» عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن زهر «الابن الوزير».

٥ - أبو بكر محمد بن أبي الوليد عبد الملك بن زهر «الحفيد».

٦ - أبو محمد عبد الله بن أبي بكر محمد بن زهر «ابن الحفيد».

أما طبيبات أسرة بني زهر الاندلسيات فهن:

١ - أخت ابي بكر بن أبي الوليد عبد الملك بن زهر (شقيقة الحفيد).

٢ - ابنة أخت أبي بكر محمد بن أبي الوليد عبد الملك بن زهر (بنت أخت الحفيد).

٣ - ابنة أبي بكر محمد بن أبي الوليد عبد الملك بن زهر (بنت الحفيد).

٤ — ابنة بنت أبي بكر محمد بن أبي الوليد عبد الملك بن زهر (ابنة بنت الحفيد). وهذا العدد من الاطباء في الاسرة الواحدة، تكون «أسرة زهر» العربية من أعرق الأسر الطبية في التاريخ العربي الاسلامي وفي العالم بأسره، لأنها أنجبت ستة أطباء مشاهير في ستة أجيال متعاقبة، وذلك فضلاً عن الطبييات الفاضلات.

أبو مروان عبد الملك بن زهر :

هو أبو الوليد عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، ويكنى أيضاً بأبي مروان، ولد في مدينة اشبيلية عام ٤٨٦ هجرية (١٠٩٣ ميلادية)، وتوفي عام ٥٥٧ هجرية (١١٦٢ ميلادية).

يعد أبو مروان عبد الملك بن زهر الإيادي واسطة العقد في أسرة أندلسية توارثت اباً عن جد علم الطب وحملت لواءه في الغرب الاسلامي من القرن الخامس إلى السابع الهجري.

فقد كان والده أبو العلاء زهر بن زهر طبيباً مبرزاً في علمه، ماهراً في التشخيص والعلاج، وكان جده وسميه أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر حاذقاً في علم الطب، وكان ممن أسهموا في ربط الصلات العلمية بين مشرق العالم الاسلامي ومغرب، ذلك أنه تعلم الطب في مصر والقيروان وأقام فيها مدة، ولايعد أن يكون قد زار العراق في رحلته المشرقية، ثم حل علمه إلى الاندلس حيث نال الشهرة والجاه وانتفع به الناس.

وخلف أبا مروان ابن هو أبو بكر محمد الذي عرف بالحفيد، وورث سر أبيه في ميدان الطب معاناة وتأليفاً كسلفه، كما برع في قرض الشعر ولاسيا الموشح، وأنجب أبو بكر ابناً هو أبو محمد عبد الله ورث هو وأخت له تكنى ام عمر سر صناعة الطب عن أبيهما وأجدادهما، وكانت هذه السيدة متخصصة في القبالة وعلل النساء هي وبنتها، وماتت هي وشقيقها أبو محمد بسم دس لهما في الطعام من بعض الحاسدين الحانقين، وخلف أبا محمد الذي فارق الحياة وهو في غضارة الشباب ولدان، نشأ في اشبيلية، أحدهما هو أبو العلاء، سمي جده الأعلى، وعني بصناعة الطب ومطالعة كتبها، لكن أخباره وأخبار أخيه غابت عنا وضاعت في متاهات الزمن، وأسدل الستار على هذه الأسرة النبيلة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

وأشهر الرجال من آل زهر هو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، نشأ

في إشبيلية، وكان جده مستقراً في دانية في كنف الرئيس مجاهد العمري ٤٠٨-٤٣٦هـ. نشأ أبو مروان في أحضان والده وأستأذه في الطب أبي العلاء، وأخذ سائر العلوم عن أكابر مشايخ عصره، ومنهم أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب ٥٢٠هـ، الذي كانت الرحلة في وقته إليه لعلو سنده وسعة روايته وتضلعه بالحديث والقراءات والتفسير واللغة، ومن كتب بالأجازة لأبي مروان وأبيه أبي العلاء الأديب البصري اللامع أبو محمد القاسم بن علي الحريري ٥١٦هـ/١١٢٢م، صاحب «المقامات» ودرة الغواص، وغيرهما من التأليف الشهيرة في اللغة والأدب.

وبعد أن تعلم أبو مروان جملة المعارف الشرعية والأدبية واللغوية وتعمق في التعاليم تفرغ لمهنة الطب مزاولاً وتأليفاً، فطارت شهرته في آفاق الغرب الاسلامي لبراعته في التشخيص والعلاج واعتماده على التجربة والاختبار والملاحظة.

ويظهر أن أبا مروان لقي أمير المسلمين علي بن يوسف أول مرة في قرطبة كما نفهم من كلامه، إذ يقول: «وأذكر أنني - وأنا فتى - قد استدعاني الشقي علي ابن يوسف إلى قرطبة بسبب ورم كان به داخل أذنه» ويظهر أيضاً أن أبا مروان باشر علاج أمير المسلمين بعد ذلك غير مامرة كما يفهم من كلامه، حيث يقول: «وهذا الوجع - أي الذي يحدثه تمدد غشاء الكبد - كان كثيراً ما يصيب الشقي علياً وعالجته منه».

وبغثة أصيب أبو مروان وأبوه أبو العلاء بمحنة من النوع الذي كان يصيب أجلة الرجال في ذلك الزمان، فسجن أبو مروان في مراکش بأمر من علي بن يوسف لأسباب ماتزال غامضة، وبقي أبو مروان يزاول مهنته وهو في حبسه، وقد أخذ أبو الحكم بن غلثة عنه علم الطب في السجن، ويخبرنا أبو مروان نفسه أنه دعي لعلاج رجل من قوم علي بن يوسف اسمه بواذودين من قرابة «أقارب» الأمير سيرين أبي بكر اللمتوني، كان مسجوناً وأصيب بقروح في معدته، ويذكر أبو مروان أيضاً أن أمير المسلمين وجه إليه وهو في الاعتقال خطيبه وكانت به حصاة فكشف عنه وعالجه. وقد تركت هذه المحنة في نفس أبي مروان أثراً بليغاً ومرارة لاتزول، وكثيراً ما كان يشير إليها في مؤلفاته، ككتاب التيسير، الذي لا يذكر فيه اسم علي بن يوسف إلا مقروناً بنعت «الشقي» وحينما ألف للخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي كتاب «الاغذية والادوية» أشار في مقدمتها إلى طول المحنة التي عاناها وهو عار من كتبه. وحينما دالت دولة المرابطين وقامت مكانها المملكة الموحدية أتيح لأبي مروان أن

ينعم من جديد بالاحترام والاكرام وشمله الخليفة عبد المؤمن بن علي ٥٢٤-٥٥٨هـ (١١٣٠-١١٦٣م) برعايته، فتمكن بذلك من تأليف أفضل كتبه، ومنها التيسير، والاغذية والادوية، والتذكرة في الدواء المسهل، كما أمكنه أن يواصل العناية بأفراد الاسرة المالكة، وفي طليعتهم الخليفة عبد المؤمن، وتوفي أبو مروان في مسقط رأسه باشبيلية بعد أن سلم الشعلة لابنه وخلفه الحفيد أبي بكر الحفيد.

منجزات ابن زهر الطبية :

وقد برع أبو مروان عبد الملك بن زهر في تشخيص الاورام الخبيثة والتدرن المعوي والتهاب الأذن الوسطى وشلل الامعاء، واستطاع علاج التراخوما «الحثر» عن طريق شق شريان الحثر، ووصف كيفية التغذية الصناعية للمرضى الذين يعجزون عن بلع الطعام وذلك عبر المستقيم أو عبر شق خارجي في المريء. وكانت له اهتمامات بالحمية والوقاية من المرضى، والاغذية المفيدة في الحماية من العلل والأسقام. وتحدث عن التهاب الناسور والتهاب التامور، كما برع في جراحة العظام والكسور، وجراحة الجهاز التنفسي. وفي العلاج كان ينصح الاطباء بمراقبة تأثير الدواء على المريض وخاصة في الأيام الثلاثة الاوائل من بداية العلاج، واذا لم تتحسن صحة المريض يمكن زيادة جرعة الدواء. وقد مارس الجراحة ووصف عملية استخراج الحصى من الكلى وعملية فتح القصة اهوائية في الحالات المستعجلة. وكان في ممارساته الطبية يميل كثيراً لمدرسة أبقراط. ووصل إلى المخاطر الناتجة عن الهواء الفاسد الذي يهب من المستنقعات، وكانت له معرفة ولامام بأمراض القلب وأمراض العيون والحنجرة، وتحدث تقريرياً في جميع فروع الطب، مما جعله أعظم طبيب في عصره في شرق وغرب العالم المعروف في ذلك الزمان، واستطاع أبو الوليد عبد الملك أن يعالج الحمى والحرارة العالية بالماء البارد، وتعالوا نستمع إليه وهو يحدثنا عن ذلك قائلاً: «إن أحسن علاج للحمى في الاعضاء هو غمس المحموم في الماء البارد، ولاشيء أنجح عندي من صب الماء البارد»، ويذكر الرواة أن أبا مروان عبد الملك بن زهر هو أول من وصف خراج الحيزوم في الحيزوم في الانسان، وتمكن من التفريق بين الامراض الرئوية والتهاب غشاء القلب الجاف والرطب.

مكانة ابن زهر في تاريخ الطب

يتبوأ أبو مروان بن زهر في تاريخ الطب العربي مكانة سامية تجعله في مصاف

أقطاب هذا العلم في عصره، ومن بناء عصر النهضة، وهو رغم متانة معارفه وسعتها بمفهوم العصر الذي عاش فيه، فقد تخصص في الطب واشتغل به طوال حياته، لم ينقطع عن مزاوله مهنته حتى وهو في السجن بمراكش، وقد ألف عدداً من الكتب والرسائل التي أودعها خلاصة تجاربه، فلم يبخل فيها بعلم ولم يقصر في نصيح، وبذلك تجاوزت شهرته آفاق العالم الاسلامي إلى العالم المسيحي الغربي، فكان هو وأمثاله من العاملين على تطور العلم العالمي.

فقد ترجم كتابه «التيسير في المداواة والتدبير» إلى اللغتين العبرية واللاتينية في عصر مبكر، وبقي قروناً من الزمن يتناوله الأطباء والمتعلمون بالدرس والتحصيل والأخذ مما فيه من نظرات في التشخيص وعلم الامراض وطرق العلاج، وترجمت كذلك رسالته في غلل الكلى.

يقول الدكتور لوسيان لوكليرك في تاريخ الطب العربي «ان هذا الطبيب أي أبو مروان — هو ألمع أفراد أسرة بني زهر، وهو زبدتها وخلاصتها ومثلها لدى عامة مؤرخي الطب عندنا حينما يذكر اسم ابن زهر».

وقد لخص أرنالديز في الطبعة الفرنسية الجديدة لدائرة المعارف الاسلامية آراء الباحثين الغربيين في ابي مروان بن زهر ومأضافه الى علم الطب فقال : «إن أبا مروان عمل كأبيه على إبراز قيمة التجربة، فقادته ملاحظاته إلى بث آراء جديدة، فقد وصف الأورام التي تحدث في الغشاء الذي يقسم الصدر طولاً، وهو أول من أشار إلى أورام غشاء القلب، ومن المسائل الهامة التي بحثها سجع الامعاء، وما يحدث في المرئ من خدر، وهو أول من أشار بحقق الغذاء عن طريق الشرج أو الحلق، والتغذية الصناعية، ولاحظ ماتسبيه المستنقعات والمياه الراكدة من آفات، وما يستحق الذكر بحثه في علة الجرب حيث وصف الصواب الذي ينقلها طفيلي الجرب، وربما يكون أحمد الطبري قد سبقه إلى ذلك في كتابه المعالجة البقراطية».

وقد عده ابن رشد الطبيب الأول بعد جالنيوس وأعجب به في عصره العامة والخاصة، وقال لوكليرك : أن ابن زهر لا يجوز مقارنته إلا بابن سينا والرازي.

ورغم ذلك فإن ابن زهر لم يحظ بالدراسة والتحصيل ولم تنشر مؤلفاته بالعربية كاملة بعد، رغم شهرته وعلو مرتبته. ولاشك أنه عندما يدرس بشكل كامل مركز علمي، وعندما ينشر الباحثون العرب مصنفاته فإن تقديرنا له سيزداد ويتضاعف كثيراً.

مؤلفات ابن زهر :

ونجمل أهم مؤلفات عالمنا وطبيبنا ابن زهر بمليلي :

١ - كتاب التيسير في المداواة والتدبير، وهو أشهر كتب أبي مروان، وأعظم مؤلفاته، وعليه قامت شهرته في الشرق وفي اوروبا على السواء في العصور الوسطى، وقد اشتهر في اوروبا بفضل ترجمته إلى اللاتينية حيث طبع عام ١٤٩٠م، وظل يدرس في مدارس الطب الغربية حتى القرن السابع عشر.

كما تم طبع هذا الكتاب بتحقيق د. ميشيل الخوري وأشرفت على نشره المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وكتاب التيسير مقسم إلى ثلاثة كتب، كل كتاب يحوي عدة رسائل، فالكتاب الاول يحوي ست عشرة رسالة، وهي تختص بقروح الرأس، أمراض الأذنين، أمراض الفم، أمراض الانف، أمراض العينين، أمراض أجزاء الدماغ، أمراض الرقبة، أمراض القلب، أمراض الرئة، أمراض الكبد، أمراض مرق البطن، أمراض المعدة، وأمراض الصدر.

أما الكتاب الثاني فيحتوي على سبع رسائل تختص بأمراض البطن وما يحوي من أمراض الكلى، أمراض النساء، أمراض جهاز التناسل الذكري، أمراض جهاز التناسل الانثوي، أمراض العظام وأمراض البدن عموماً.

ويحتوي الكتاب الثالث على ثلاثة فصول وهي الحميات والامراض الوبائية، وفي نهاية الكتاب قائمة بالوصفات الطبية وتركيبها وطريقة استعمالها.

٢ - كتاب الأغذية والأدوية

ألفه ابن زهر بأمر من الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي، وما يزال مخطوطاً، وتوجد منه نسختان بالخزانة الحسينية في الرباط.

تطرق ابن زهر في هذا الكتاب إلى طب الاطفال وطرق تغذيتهم وكيفية العناية بهم داخل الرحم وخارجه، فهو يقول : «ألا تتعرض الحامل لعمل من الاعمال الشاقة الصعبة، ولا إلى حركة قوية شديدة، ولا إلى استغراق بقصد ولا بدواء مسهل، وخاصة في أوائل الحمل، وأن تتجنب الوثب والجري ورفع الاثقال»، وقد نصح ابن زهر بعدم مسح جسم الطفل المولود بالملح لأن ذلك يؤدي الطفل، وأوصى باستخدام دهن البلوط بدلاً عن الملح لأنه الأفضل ولا يؤدي الطفل ولا يمنعه النوم، ونحن لازلنا حتى اليوم نستخدم الدهن والزيت بمسح أجسام الاطفال حديثي الولادة، وهذا دليل على صدق نظرية ابن زهر.

وفي كتاب الاغذية تحدث ابن زهر عن العناية بالطفل بعد الفطام إلى أن يبلغ السبع سنوات، فهو يقول : «عندما يطم يجب أن يتعهد بشرب الألبان المحمودة، كلبن المعز، لأنه أوفق الاغذية له. فإذا اشتدت وقويت اعضاؤه لم يمنع من اللعب على رفق، وإذا تجاوز سبع سنين أخذ في تعليمه وتأديبه، ولا يمنع أن يبرح بعض النهار. وهذا الكتاب غير مطبوع بالعربية وموجود بعض مخطوطاته في اوربا.

٣ - كتاب الاقتصاد في صلاح الانفس والأجساد، ألفه أبو مروان في شبته عام ٥١٥هـ، وهو مايزال مخطوطاً، وتوجد منه عدة نسخ، منها نسخة بالخزانة الحسينية في القصر الملكي في الرباط.

٤ - كتاب الترياق السبعين. ٥ - كتاب استحضار الادوية والحميات.

٦ - رسالة في علتي البرص والبق، والتي وجهها لزملائه أطباء اشبيلية.

٧ - رسالة في علاج الامراض وهي عبارة عن نصيحة لابنه أبي بكر الحفيد.

٨ - مقالة في علل الكلى.

٩ - كتاب الزينة.

وفي النهاية نقول : إن من الواجب الحتمي على المسؤولين من العلماء في البلاد الاسلامية أن يستخرجوا هذا التراث ويعرفوا جيلنا الحاضر به، وماهذا عن رغبة في الارتداد إلى الماضي الغابر، بل رغبة في اذكاء روح الثقة بالنفس في أبنائنا، وتقوية شخصيتهم الاسلامية التي تتعرض لضغوط هائلة، وهذا ينشأ الجيل الجديد نشأة تؤهله للاضطلاع بتبعات النهضة التي طالما انتظرتها امتنا، ومازالت تنتظرها.

المصادر

١ - أعلام العرب والمسلمين في الطب، د. علي عبد الله الدفاع.

٢ - الاعلام قاموس وتراجم، خير الدين الزركلي.

٣ - دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، حكمت نجيب عبد الرحمن.

٤ - تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، د. شوكت الشطي.

٥ - من تراثنا - مائة أوائل، د. سهيل زكار، المحامي أحمد غسان سبانو.

٦ - أطباء وطبيبات بنى زهر، د. الفاضل العبيد عمر.

٧ - الطب والأطباء في مختلف العهود الاسلامية، د. محمود دياب.

٨ - الطب والاطباء في الاندلس الاسلامية، دراسة وتراجم ونصوص، الجزء الاول تأليف وتحقيق محمد العربي الخطابي.